ينبغي أن يكون في عقله ، ويكون النصف الآخر في البنك . . .

* * *

عند ما تكونُ الساعةُ هي ساعةَ انتظار الشيء المحبوب ، يكون قلبُ المنتظِر من زَحْمةِ الدقائق كالذي يشُقُّ طريقاً زاحمَهُ الناسُ فيه

* * *

الدليل في رأي الحب مَن إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَه ، والعزيزُ في رأي الحبِّ من إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَها

* * *

اليومُ الذي يكونُ قلبياً مَحْضاً يبقى له دائماً باقٍ لا ينتهي ؛ ولهذا لا يزالُ الحبُّ الطاهرُ كأنه في بقيةٍ من أوله بهما تَقادَم

* * *

لا يعرفُ الطفلُ تاريخَه من الزمن وما فيه ، ولكن من بيت أهله ومَن فيه ؛ فأمسِ واليومُ وغدا هي كلُّها عنده أمسِ الذي يكبَرُ شيئاً فشيئاً . . . ابنُ الطفولة إنما هو ابنُ حالةٍ من حالات الحياة لا ابنُ زمن ، وهذا سرُّ السعادة

* * *

يالها عجيبة ! إن الصوفيَّ إذا فاز في حبه الإلهي رأى نفسَه باقياً في الزمن بلا بقاءٍ يَعْلَمُه ، وفانياً عن الزمن بلا فَناءٍ يشعرُ به ؛ وذلك بعينه ما يراه العاشقُ إذا خاب في حبه الانساني . . .

* * *

الفرقُ بين كاتبٍ مُتَعَفِّفٍ وبين كاتب مُتَعَهِّرٍ أن الأول مُشْتَغِلٌ بواجب ، والآخر مُشْتَغَلٌ به ذلك الواجب . . .

* * *

كانت الشفقةُ هي الأصلَ في كل موضع استهزاءٍ فما تستهزئُ إلا بخطإٍ أو ضعفٍ أو عجز ؛ ولكن شعورَ الحيوان بقدرته على حيوان آخر ، أو بانتصاره ، أو بامتيازه ؛ هو في الانسان أصلُ ذلك الاستهزاء

* * *

كما يضرُّ أهلُ الشر غيرَهم إذا عملوا الشر ، يضرُّ أهلُ الخير غيرهم إذا لم يعملوا الخير

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الدعوة الى القصص

علام تقوم وماذا انتجت ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يجوز الأدب العربي اليوم حركة تطور وتجديد لاريب في قوتها وأهميتها ؛ والحركات الفكرية ، كالحركات السياسية ، عرضة للأغراق والتطرف ، ولاسيما قبل أن تبلغ مرحلة النضج والاستقرار ؛ وقد كانت حركتنا الأدبية عرضة لبعض هذه المظاهر المتطرفة ؛ فقد أفرط البعض مثلاً في التحدث عن الجديد والقديم دون أن يسفر هذا الجدل الخالد عن معان واضحة أو نتائج عملية ؛ وقد زعم البعض أن التجديد هو إغفال الماضي كله ، والسير وراء التفكير الغربي في حركة تقليد عمياء ؛ وظهرت في الأعوام الأخيرة في حركتنا الأدبية خاصة تطرف أخرى ، هي الأغراق في التحدث عن القصة وكتابة القصة ، وفي تقدير المكانة التي يجب أن يتبوأها القصص في أدبنا ؛ ويذهب بعض أصحاب هذا الحديث الى أن القصص هو أعظم وأجل وأقيم ما في الأدب الغربي ، فيجب أن يكون له مثل هذه المكانة في أدبنا ، ويجب أن ينصرف الكتاب الى تأليف القصة حتى يصبح لنا تراث قصصي عريض مثلما في الأدب الغربي

وهذا قول يحتاج الى بيان ومناقشة . نعم إن القصص يتبوأ في الآداب الغربية الحديثة أسمى مكانة ؛ ولكنه ليس كل شيء في هذه الآداب ، وليس هو أعظم شيء فيها ؛ وإنما يتخذ القصص هذه المكانة في آداب عظيمة تفتحت فيها جميع نواحي التفكير والفن ونضجت ، واتصلت مراحل نموها وتطورها مدى عصور . وللقصص الرفيع في هذه الحضارات والآداب العظيمة مهمة سامية أخرى غير متاع القراءة والرياضة العقلية ، هي المعاونة في تربية النشء وتكوينه ، وتكوين الأخلاق والخلال الفاضلة ، والدعوة الى المثل العليا . والقصص يتخذ أداة للتعبير عن خفايا النفس البشرية ، وصياغة العواطف النبيلة والعبر المؤثرة ، كما يتخذ أداة لعرض ما في اللغة القومية من كنوز البيان الساحر . وإنا لنتساءل

أولاً : هل يفهم القصص في أدبنا على هذا النحو ؟ وهل استطعنا بعد كل هذا الضجيج أن نخرج في ميدان القصص ما يمكن أن يرتفع ، في فنه وفي قيمته الأدبية ، الى هذا المستوى ؟ وهل نضجت حركتنا الأدبية واستكملت كل ما ينقصها من النواحي والعناصر التي يجب أن تمثل في كل الآداب العظيمة فلم يبق أمامنا إلا أن نعالج القصص وأن نحسنه ؟

إن القصص لم يتبوأ مكانته الرفيعة في الآداب الغربية إلا في العصر الحديث حينما ازدهرت هـــذه الآداب ، واستكملت عناصرها الجوهرية . نعم إن القصص وجد في الآداب القـديمة منذ أقدم العصور ؛ ولـكنه لم يشغل في الآداب القديمة ذلك الفراغ الشاسع الذي يشغله في الآداب الحديثة ، وقد كان فوق ذلك من نوع خاص ، قصصاً دينياً أو قصص بطولة أو قروسـة قومية ، ولم يخرج قصص العصور الوسطى في الآداب الغربيـة عن هذه الدائرة . ولنا مثل هذا القصص في أدبنا العربي القديم ؛ ولـكن الحركة الفـكرية اضمحلت في الشرق في الوقت الذي نهضت فيه في الغرب وأخذت تتفتح في سـائر النواحي وتنمو بخطى عظيمة ؛ وبينما كانت الآداب الغربية تغزو ميادين جديدة ، منها ميدان القصص ، اذا بالحضارة الأسلامية والآداب العربيـة تخبو وتتراجع أمام الغزوات البربرية التي قام بها التتار والترك في سائر أنحاء العالم الأسلامي ؛ ولما افتتح الترك مصر ، وهي يومئذ ملاذ التفـكير الأسلامي ، لقيت الآداب العربية ضربتها القاضية ، وركدت ريحها زهاء ثلاثة قرون ، وتخلفت عن الآداب الغربية في كل نواحي التقدم ؛ ولم تستطع أن تنهض من سباتها الطويل إلا بعد أن تقلص عنها ظل هذا النير البربري

وما نراه اليوم من نقص في نواحي حركتنا الفكرية ، إنما هو من أثر هذا الاضطهاد الذي أصابها مدى هذه الأحقاب الطويلة ؛ والقصص إحدى هذه النواحي ، بيد أنه ليس أهمها وأحقها بالعناية ؛ فهنالك نواح أخرى في أدبنا لم تنضج ولم تستقر ، وهنالك في ميـادين العلوم والفنون نقص واضح ، والقصص الرفيع عنوان حركات فكرية نضجت واستقرت وازدهرت فيها مختلف نواحي الثقافة والفنون . وقد يظهر القصص في آداب أمم وحضارات متأخرة ، ولـكنه يكون قصصاً ساذجاً تنقصه عناصر الفن والتفكير . وإذا كان من المسلم به أن حركتنا الفكرية لا زالت بحاجة الى استكمال كثير من العناصر الجوهرية ، فليس مما يقويها ويدعمها ، أن تنصرف الى نواح دون أخرى ، وأن نؤثر بعض هذه النواحي بالأهمية والخطورة ، وأن نصورها خلاصة الفن والأدب ، وكل شيء فيهما ، على نحو ما يصور البعض كتابة القصص ، فمثل هذا الأغراق لا يخـدم قضية الأدب والثقافة ؛ ولـكنه بالعكس يجني عليها اذا أثمر ثمره في الأذهان والأقلام الناشئة . وهذا ما يلوح لنا أنه يحدث اليوم في حركتنا الأدبية ؛ فقد ذهب أصحاب الدعوة الى القصص في تصوير أهميته وقيمته الأدبية الى حـدود بعيدة ، وتأثر بهذه الدعوة المغرقة كثير من الشباب الذين لم يستكملوا كل عناصر الثقافة القوية ، فانصرفوا الى قراءة القصص والى كتابته ، حتى أصبحنا أمام سيل من القصص السـاذج الغث يشغل وقت الشباب والناشئين

* * *

والآن لنر ماذا كانت نتائج هذه الدعوة ، وهل أسفرت حقاً من الوجهة الأدبية عن نتائج تذكر . وأول ما يلفت النظر هو كثرة القصص التي تغمر الصحف والمجلات . ولـكن الـكمية ليست هي كل ما في الانتاج الأدبي ، وإنما يهم النوع قبل كل شيء ؛ ومن الزعم البـاطل أن يقال إننا استطعنا أن نخرج حتى اليوم آثاراً قصصية ترتفع في قيمتها الأدبية والفنية الى مستوى القصص الغربي ؛ وقد نظفر بآثار قليلة تمتاز بشيء من القوة والطرافة ، ولـكنها مع ذلك تحمل طابع المجهود الأول ، وينقصها كثير من العناصر الفنية ؛ أما الـكثرة الساحقة من هـــذا القصص الذي يغمر اليوم ميدان أدبنا ، فليست لها أية قيمة أدبية تذكر ؛ ويلاحظ أولاً أن كثيرا من القصص الذي يبدو في ثوب التأليف إنما هو قصص منقول عن الأدب الغربي ، يصاغ في أثواب مصرية لـكي تضيع معالمه ، ولـكنه يتم دائما على حقيقته ؛ ولا نلمس في هـذا القصص الناشيء أية لمحة من الفن الحقيقي أو الخيال الشائق ؛ ثم هو لا يكاد يحظى بأي قسط من البيان القوي ، بل يعرض دائماً في أساليب ضعيفة ينقصها روح التعبير القوي ، ويبدو فيها أثر التقليد والنقل واضحاً ؛ ولسنا ندري ماذا تـكون القيمة الأدبية لقصص عاطل عن مزايا الفن والخيال

والبيان معاً ، وكل ما فيه أنه قصص فقط ؛ أضف إلى ذلك أن هذا السيل المتصل من القصص ينقصه عنصر التوجيه والثقافة ، فهو لا يتجه إلى غاية ثقافية معينة ، ولا تحدوه أية مثل اجتماعية ، أو أخلاقية محترمة

ولقد قام القصص الغربي في معظم الأحيان على تراث التاريخ والحضارة ، وما زال في كل أمة ممرضاً قوياً للتاريخ القومي والحياة الاجتماعية القومية ، ولكن ما هي المواد التي يستقي منها كتاب « القصص » عندنا ؟ وأي نواح من حياتنا الاجتماعية أو تاريخنا القومي استطاعوا أن يعرضوه ؟ إنهم في الواقع يعرضون صوراً باهتة من الحياة الاجتماعية الغربية ، ويحاولون أن ينسبوها للحياة الاجتماعية المصرية . ذلك لأنهم مقلدون ناقلون في الغالب ، ينبذفعون وراء نزعة لم تقم على الدرس الصحيح ؛ وهل قصص الحب المبتذل ، ومناظر المسارح واللاهي والمراقص ، ومقابلات السينما والشاطئ (البلاج) ، والمراسلات الغرامية السخيفة ، هي كل ما في الحياة الاجتماعية المصرية ؟ ولقد كان لنا ثمة مادة بديعة للقصص في تاريخنا القومي ، فهو حافل بصنوف المآسي الملوكية والشعبية ، والحوادث والمواقف الشائقة ؛ فهل فطن أحد من كتاب القصص إلى هذا الكنز الزاخر والمورد الخصب ؟

ولقد قلنا إنهم يزعمون أن الرجوع إلى الماضي ينافي دعوة « التجديد » التي يضجون بها ، ولا يستطيعون فهمها أو تحديد معانيها ؛ فهم لذلك لا يعنون بالتنقيب في تراثنا الغابر ؛ ولكن الواقع أنهم لا يفعلون ذلك تعففاً أو قصداً وإنما هو القصور وانقطاع الصلة الروحية لديهم بين مراحل الأدب الذين يزعمون أنهم طلائعه. والبحث يجشمهم جهوداً لا يستطيعون الاضطلاع بها . على أن القصص الرفيع في الآداب الغربية يفسح أكبر مجال لمآسي التاريخ وحوادثه . ويكفي أن نذكر بعض الأسماء لتأييد هذه الحقيقة ، فقد كان التاريخ وحده تقريباً مادة شيللر في جميع قصصه المسرحية ؛ وكان أروع ما أخرجه سنكيفتش قصته التاريخية الرومانية « كوفاديس » التي تعتبر من أعظم ما أخرج القصص الغربي ؛ وكتب لورد ليتون « أيام بامبيای الأخيرة » ، وكتبت جورج اليوت « روميولا » ، وعرض اسكندر ديما مراحل التاريخ الفرنسي في سلسلة من القصص التاريخية البديعة . بل لقد ألفى بعض أكابر كتاب الغرب في تاريخنا ، وفي التاريخ الاسلامي مادة نفيسة ؛ فكتب تشارلس كنجسلي « هيباسيا » عن العصر اليوناني الروماني في مصر ، وكتب اسكوت « ايفانهو » عن بعض حوادث الحروب الصليبية ، وصاغ فون هامار ولاهارب مصرع البرامكة في قالب قصصي بديع ، وكتب شاتوبريان « آخر بني سراج » إلى غير ذلك مما يضيق المقام بذكره

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه الدعوة الصاخبة إلى كتابة القصص واعتباره كل ما في الأدب من قيم ونفيس ، وتأملنا ما انتهت إليه من النتائج العملية ، ألفينا فراغاً في كل ناحية ، وألفينا فشلاً مطبقاً . والفشل دائماً حليف كل نزعة أو حركة لا تقوم على قواعد صحيحة ، ولا تتوسل إلى غاياتها بالوسائل الطبيعية ؛ وقد فشلت هذه الحركة المفرقة ، لأنها قصدت أن تبتدئ حيث يجب الانتهاء ، ولم تسر في مراحل التدرج ؛ جنباً إلى جنب مع باقي نواحي الحركة الأدبية ؛ ولم تقم بالأخص على الدرس والبحث ، وإنما قامت على عوامل وبواعث مصطنعة . أراد فريق من كتابنا أن يصبحوا بين الأمس واليوم من أساتذة القصص ، وأن يناهضوا كتاب القصص الغربيين الذين كونتهم حضارة وآداب وثقافات مؤتلة متصلة المراحل ، وتصوروا أنهم يستطيعون تحقيق هذه الغاية باخراج هذه القطع الركيكة الذابلة التي تنقصها كل عناصر الفن والخيال والبيان

ونحن نقدر قيمة القصص ورفيع مكانته في الأدب الغربي ، ولكنا نود فقط أن نعرض الأمور على حقيقتها ، وأن نلفت النظر إلى ما يترتب على هذا الأغراق في شأن القصص من الآثار السيئة في حركتنا الأدبية ، وهي لم تستكمل بعد كل عناصر النضج والاستقرار . ولقد كان الاندفاع في هذا التيار على هذا النحو من وجوه الضعف في حركتنا الأدبية ؛ لأنه يستغرق جهوداً كان خليقاً أن تصرف في نواح أخرى ؛ ولقد كان الجهد كبيراً مستفيضاً ، ولكن دون تبصر وتمكن ، فجاء الغنم ضئيلاً يدعو إلى الرثاء . ومن المبالغة أن نقول إننا قد استطعنا أن نفزو بعد ميدان القصص الرفيع ، أو إننا أخرجنا تراثاً قصصياً يجدر بالتقدير والاحترام .

محمد عبد الله عنان

المحامي